التكلف في قراءة القرآن
مفهومه وأسبابه ومظاهره

د. فيصل بن جميل غزاوي

الأستاذ المشارك بقسم القراءات بجامعة أم القرى

المقدمة

الحمد لله العلي الغفار، رضي لنا الإسلام ديناً خالياً من الأغلال والآصار، والصلاة والسلام على النبي المختار، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه الأطهار، أما بعد: فقد يسر الله لعباده تلاوة كتابه، ورتّب على ذلك عظيم ثوابه، فيقرأه الذين يتلونه حق تلاوته بحسب ما يتلقون، ويبتعدون عن التعسف في القراءة فلا يتكلفون، بل يعدون ذلك تنطعا خارجا عن كونه سنة متبعة يتلقاها الآخر عن الأول، وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على قراءة ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: «من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد».

وللحديث عن هذه المعاني السابقة؛ رأيت أن أجمع مادة علمية في بحث جعلت عنوانه: التكلف في قراءة القرآن "مفهومه وأسبابه ومظاهره".

والله أسأل التوفيق والسداد.

أهمية الموضوع

تبرز أهمية الموضوع في عدة أمور:

كونه متعلقا بكتاب الله، والعلوم إنما تشرف بشرف متعلقها.

رواج ظاهرة التكلف في قراءة القرآن عند بعض أئمة المساجد واستحسان ذلك عند كثير من عوام الناس.

أنني لم أجد من كتب في هذا الباب بحثا علميا مفردا مستقلا، فاستحق لأهميته أن يكتب فيه.

الدراسات السابقة.

لم أقف حسب اطلاعي على مادة علمية جُمعت في هذا الموضوع وفق ما تناولتُه في خطة البحث.

خطة البحث

وتتكون من مقدمة، وأربعة مباحث، وفهارس على النحو التالي:

المقدمة: وتشتمل على: أهمية الموضوع، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهجه وخطوات العمل فيه.

المبحث الأول: معنى التكلف لغة واصطلاحا.

المبحث الثاني: النصوص الواردة في النهي عن التكلف.

المبحث الثالث: ما ورد عن السلف في النهي عن التكلف في قراءة القرآن.

المبحث الرابع: أسباب ومظاهر التكلف في قراءة القرآن.

الخاتمة: وفيها ذكر أهم نتائج البحث.

الفهارس: وتشتمل على التالي:

ثبت المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

منهج البحث وخطوات العمل.

سيكون منهج البحث إن شاء الله وفق الخطوات التالية:-

الالتزام بالمنهج العلمي المتبع في البحث والرجوع للمصادر الأصيلة ما أمكن.

مراعاة القواعد الإملائية المقررة، مع الالتزام بعلامات الترقيم، وضبط ما يحتاج إلى ضبط.

نسبة الآيات إلى مواضعها بذكر اسم السورة ورقم الآية، مع كتابتها بالرسم العثماني.

عزو الأحاديث والآثار إلى مصادرها الأصلية ذاكرا ما أقف عليه من أقوال أهل العلم في الكلام على الأحاديث.

تخريج الأحاديث وفق منهجية متبعة؛ فإذا كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما فإني أكتفي بالعزو إلى من أخرجه، وإذا كان في غيرهما فإني أذكر مصدره من كتب السنة الأخرى، مع بيان حاله صحةً وضعفاً.

توثيق النقول الواردة من مصادرها الأصلية، والتعليق على ما يحتاج إلى تعليق.

المبحث الأول: معنى التكلف لغة واصطلاحا.

أ. التكلف لغةً: مصدر قولهم: تكلّف الشّيء يتكلّفه، وهو مأخوذ من مادّة (ك ل ف)، الّتي تدور حول معنى الإيلاع بالشّيء والتّعلّق به، تقول: كلف بالأمر يكلف كلفا: تعلّق به وأولع، وأكلفته به: جعلته كَلِفا، والكلف في الوجه: سمّي بذلك لتصوّر كلفة به، وتكلُّف الشّيءِ: أن يفعله الإنسان بإظهار كلف مع مشقّة تناله في تعاطيه، وصارت الكلفة في التّعارف اسما للمشقّة، يقال: كلف بالشّيء كلفا وكلفة، فهو كلف ومكلّف: لهج به. قال أبو زيد: كلفت منك أمرا كلفا. وكلف بها

أشــدّ الكلف أي أحبّها. والمكلّف والمتكلّف: الوقّاع فيما لا يعنيه. والمتكلّف: العرّيض لما لا يعنيه: يقال: كلفت هذا الأمر وتكلّفته. والكلفة: ما تكلّفت من أمر في نائبة أو حقّ. ويقال: كلفت بهذا الأمر: أي أولعت به.

وكلّفه تكليفا أي أمره بما يشقّ عليه، وتكلّفت الشّيء: تجشّمته على مشقّة وعلى خلاف عادتك وكلفته إذا تحمّلته. ويقال: فلان يتكلّف لإخوانه الكلف والتّكاليف. ويقال: حَمَلت الشّيء تكلفة إذا لم تطقه إلّا تكلّفا.(١)

ب. أما التكلف اصطلاحا:

قال الرّاغب رحمه الله: "التّكلّف: اسم لما يفعل بمشقّة أو تصنّع أو تشبّع"(٢). وقال النووي رحمه الله: "هو فعل وقول ما لا مصلحة فيه بمشقة"(٣)، وقال الفيروز أبادىّ رحمه الله: "التّكلّف: الأمر بما يشقّ على الإنسان"(٤). وقال المناويّ رحمه الله: "التّكلّف: أن يحمل المرء على أن يكلف بالأمر كلفة بالأشياء الّتي يدعو إليها طبعه"(٥).

(١) ينظر: مختار الصحاح (ص: ٢٧٢)، المصباح المنير (٥٣٧/٢)، القاموس المحيط (ص: ٨٥٠)، تاج العروس (٣٣٢/٢٤)، المعجم الوسيط (٧٩٥/٢).

(٢) المفردات (٧٢١/١).

(٣) رياض الصالحين (٤٦٦/١).

(٤) بصائر ذوي التمييز (٣٧٦/٤).

(٥) التوقيف (١٠٧).

والتّكلّف قد يكون محموداً، وهو ما يتوخّاه الإنسان ليتوصّل به إلى أن يصير الفعل الّذي يتعاطاه سهلا عليه ويصير كلفا به ومحبّا له، ولهذا النّظر استعمل التّكليف في تكلّف العبادات، وقد يكون مذموما، وهو ما يتكلّفه الإنسان مراءاة وهو المقصود هنا.(١)

المبحث الثاني: النصوص الواردة في النهي عن التكلف.

وردت نصوص في الكتاب والسنة تنهى عن التنطع والتكلف وتجاوز الحد في الأمور، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾(٢): أي وما أنا ممّن يتكلّف تخرّص القرآن وافتراءه، وقيل: لا أتكلّف ولا أتخرّص ما لم أومر به(٣)، وقَالَ صلى الله عليه وسلم: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثا.(٤)

والمتنطع : هو المتعمق في الشيء، المغالي فيه، المجاوز حدَّ الشرع فيه، سواء أكان قولاً أم فعلاً أم اعتقادًا(٥).

(١) ينظر: المفردات (٧٢١/١)، بصائر ذوي التمييز (٣٧٦/٤)، التوقيف (١٠٧).

(٢) [ص: ٨٦]

(٣) تفسير الطبري (٦٠٨/١٠)، تفسير القرطبي (١٥٠/١٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٥٥/٤)، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، برقم (٢٦٧٠).

(٥) ينظر: شرح النووي على مسلم (٢٢٠/١٦).

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»(١).

ومعنى: (الغالي فيه) أي: المجاوِز فيه عن الحد لفظاً ومعنى، أو الخائنِ فيه بتحريفه، أو في معناه بتأويله بباطل.(٢)

وعن مسروقٍ قال: "دخلنا على عبدالله بنِ مسعودٍ قال: يا أيها الناس، من عَلِم شيئًا فليقلْ به، ومن لم يعلمْ فليقلْ: اللهُ أعلم؛ فإن من العلم أن يقولَ الرجل لما لا يعلمُ: الله أعلم؛ قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾"(٣).

وفي صحيح البخاري أيضا عن أنسٍ رضي الله عنه قال: (كنا عند عمرَ رضي الله عنه فقال: نُهينا عن التكلف)(٤).

(١) أخرجه أبو داود (٤/٢٦١) برقم (٤٨٤٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامه الصغير وزيادته (١/٤٣٨).
(٢) شرح المصابيح لابن الملك (٥/ ٣٠١).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/١٢٤)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وما أنا من المتكلفين}، برقم (٤٧٧٤).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/٩٥)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، برقم (٧٢٩٣).

(نهينا): أي: نهانا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، (التكلف): قال في النهاية: "أراد: كثرةَ السؤال والبحثَ عن الأشياء الغامضة التي لا يجب البحث عنها"(١).

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إياكم والغلو في الدين)(٢). قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والغلو في الدين عام في جميع أنواع الغلو؛ في الاعتقاد والأعمال"(٣).

المبحث الثالث: ما ورد عن السلف في النهي عن التكلف في قراءة القرآن.

من المتقرر المعلوم أن دين الله يسر وأن الله تعالى يسر تلاوة كتابه ولم يجعلها عسرة، بل سهَّل النطق بحروفه وكلماته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾، قال مجاهد رحمه الله: "يعني: هَوَّنَّا قراءته"، وقال السدي رحمه الله: "يسرنا تلاوته على الألسن"(٤)، وذكر الماوردي رحمه الله في معنى الآية ثَلاثَة أوجه صدَّرها بقوله: "أَحَدُها: مَعْناهُ سَهَّلْنا تِلاوَتِهِ عَلى أَهْلِ كُلِّ لِسانٍ، وهَذا أَحَدُ مُعْجِزاتِهِ، لِأَنَّ الأَعْجَمِيَّ قَدْ يَقْرَأُهُ ويَتْلُوُهُ كالعَرَبِيِّ"(٥)

(١) النهاية في غريب الحديث (١٩٦/٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٩٨/٥) برقم (٣٢٤٨)، والنسائي (٢٦٨/٥) برقم (٣٠٥٧)، وابن ماجه (١٠٠٨/٢) برقم (٣٠٢٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٥٢٢/١).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٣٢٨/١).

(٤) ينظر أثر مجاهد والسدي في تفسير ابن كثير (٤٧٨/٧).

(٥) النكت والعيون (٤١٣/٥).

وقد كانت قراءة السلف للقرآن سهلة ميسرة وفق ما تلقوه لا تكلف فيها ولا ابتداع، ثم طرأ أمر الإخلال بهذا فظهرت المخالفات الشرعية بعد ذلك، مما دعا العلماء إلى أن يرصدوا صور هذا التعسف الذي وقع عند بعض القراء ويحذروا من ذلك ويبينوا خطأ ما وقع فيه بعضهم من الخروج عن قواعد الأداء الصحيح وتجاوز الحد المشروع في التلاوة، قال ابن قتيبة رحمه الله: "وقد كان الناس قديما يقرؤون بلغاتهم كما أعلمتك، ثم خلف قوم بعد قوم من أهل الأمصار وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة، ولا علم التكلّف، فَهَفَوا في كثير من الحروف وزلّوا وقرؤوا بالشاذ وأخلُّوا..."(١).

وقال أبو عمرو الداني رحمه الله: "باب ذكر الإفصاح عن مذاهب الأئمة في حد التحقيق ونهاية التجويد وما جاء عنهم من الكراهة في التجاوز عن ذلك: اعلموا أن التحقيق الوارد عن أئمة القراءة حدُّه أن توفى الحروف حقوقها، من المد: إن كانت ممدودة، ومن التمكين: إن كانت ممكنة، ومن الهمز: إن كانت مهموزة، ومن التشديد: إن كانت مشددة، ومن الإدغام: إن كانت مدغمة، ومن الفتح: إن كانت مفتوحة، ومن الإمالة: إن كانت ممالة، ومن الحركة: إن كانت متحركة ومن السكون: إن كانت مسكنة، من غير تجاوز ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف، على ما نبينه فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

فأما ما يذهب إليه بعض أهل الغباوة من أهل الأداء من الإفراط في التمطيط والتعسف في التفكيك والإسراف في إشباع الحركات وتلخيص السواكن، إلى غير ذلك من الألفاظ المستبشعة

(١) تأويل مشكل القرآن (٤٢/١).

والمذاهب المكروهة فخارج عن مذاهب الأئمة وجمهور سلف الأمة، وقد وردت الآثار عنهم بكراهة ذلك، وبكيفية حقيقته"(١).

ولابن القيم رحمه الله كلامٌ حسنٌ يتعلق بهذا المعنى قال في خاتمته: "والمقصود: أن الأئمة كرهوا التنطع، والغلو في النطق بالحرف، ومن تأمل هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإقراره أهل كل لسان على قراءتهم، تبين له أن التنطع، والتشدق، والوسوسة في إخراج الحروف، ليس من سنته". (٢)

المبحث الرابع: أسباب ومظاهر التكلف في قراءة القرآن.

قراءة القرآن مع مراعاة أحكام التجويد: أمر حسن محمود، إلا أن بعض الناس تكلف في إقامة حروف القرآن، وتعسف في النطق بها، وبالغ في ذلك حتى خرج عن الحد الاعتدال والتوسط، ولم يكتف بهذا بل قام بانتقاد غيره وتجهيله من قُرَّاء القرآن وحفظته في بعض الأحكام التجويدية؛ لمجرد اجتهادات استحسنها أو قلد بعض من تلقى عنهم في أشياء ليست بلازمة عند أهل الفن وقواعد الأداء. قال ابن الجزري رحمه الله: "التجويد هو حلية التلاوة، وزينة القراءة، وهو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله، وإلحاقه بنظيره وتصحيح لفظه وتلطيف النطق به على حال صيغته، وكمال هيئته ; من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف،

(١) التحديد في الإتقان والتجويد (ص: ٨٩).
(٢) إغاثة اللهفان (١٦٢/١).

وإلى ذلك أشار النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ القُرآن غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءةِ ابن أُمِّ عَبْد"(١)، يعني عبد الله بن مسعود"(٢).

وإذا نظرنا إلى الأسباب الدافعة إلى التكلف في قراء القرآن فيمكن أن تنتظم الأمور التالية:

الجهل: فهو آفة عظيمة ينشأ التكلف عنه، فقد يتكلف من يقرأ قي قراءته للقرآن مع جهله حُكم ذلك، وقد يظن أنه محسن في عمله لأنه يرى القبيح حسنا ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾(٣)، وقد يتكلف في تعليم القراءة فيُعسّر على من يقرأ عليه ويُنفّره، قال ابن قتيبة رحمه الله: "حَمْلُه المتعلمين على المركب الصعب وتعسيره على الأمة ما يسره الله وتضييقه ما فسّحه"(٤). والمرء غير مؤاخذ بما لا يطيق؛ إذ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

الرِّياء وحبُّ الظهور وهو داء دوي قاتل؛ فهذا الذي يقرأ ويتكلف في قراءته ويتصنع طلبا للمحمدة والثناء؛ أيّ خير يرجو وقد عرّض نفسه لما فيه من فساد النية وضياع الأجر، قال صلَّى الله عليه وسلَّم: (إنَّ أخوفَ ما أخاف عليكم الشِّرْك الأصغر)، قالوا: وما الشِّرك الأصْغر يا رسول الله؟ قال: (الرياء؛ يقول الله –عزَّ وجلَّ– يوم القيامة إذا جُزِيَ النَّاسُ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كُنتم

(١) أخرجه ابن ماجه واللفظ له (٤٩/١) برقم (١٣٨)، وأحمد (٢١١/١) برقم (٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٠٣٤/٢).

(٢) النشر في القراءات العشر (٢١٢/١).

(٣) [فاطر: ٨].

(٤) تأويل مشكل القرآن (٤٣/١).

تُراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندَهم جزاءً؟)(١)، وعن أبي هُريرة -رضي الله عنه- قال: قال عليه الصلاة والسلام: (قال الله تبارك وتعالى: أنَا أغْنى الشُّركاء عن الشِّرْك؛ مَن عمِل عملاً أشْرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكه)(٢)، وعن ابن عبَّاس -رضي الله عنه- قال: قال صلَّى الله عليه وسلَّم: (مَن سمَّع سمَّع الله به، ومَن راءى راءى الله به)(٣).

الوسوسة، وهذا من الشيطان، قال ابن القيم: "فصل ومن ذلك الوسوسة في مخارج الحروف والتنطع فيها...(٤)"، فترى هؤلاء يكررون الحرف وهم يقرؤون الآية بحجة أن الحرف لم يخرج من مخرجه الصحيح، وهذا من شدة تكلفهم ومبالغتهم! قال ابن الجوزي رحمه الله: "وقد لبس إبليس على بعض المصلين في مخارج الحروف فتراه يقول الحمد الحمد، فيخرج بإعادة الكلمة عن قانون أدب الصلاة، وتارة يلبس عليه في تحقيق التشديد، وتارة في إخراج ضاد المغضوب، ولقد رأيت من يقول المغضوب فيخرج بصاقة مع إخراج الضاد لقوة تشديده، وإنما المراد تحقيق الحرف فحسب، وإبليس يخرج هؤلاء بالزيادة عن حد التحقيق ويشغلهم بالمبالغة في الحروف عن فهم التلاوة، وكل هذه الوساوس من إبليس"(٥).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩/٣٩) برقم (٢٣٦٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٢٣/١).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٨٩/٤)، كتاب الزهد والرقائق، باب مَن أشرك في عمله غير الله، برقم (٢٩٨٥).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٨٩/٤)، كتاب الزهد والرقائق، باب مَن أشرك في عمله غير الله، برقم (٢٩٨٦).
(٤) إغاثة اللهفان (١٦٢/١).
(٥) تلبيس إبليس (ص: ١٢٦).

التلقي الخاطئ: فقد يتلقى القرآن عن غير قارئ متقن فيقع في اللحن ويكون منه التكلف في القراءة، قال ابن الجزري رحمه الله: "أصل الخلل الوارد على ألسنة القرّاء في هذه البلاد وما التحق بها هو إطلاق التفخيمات والتغليظات على طريق ألفتها الطباعات، تُلقّيت من العجم واعتادتها النّبط واكتسبها بعض العرب؛ حيث لم يقفوا على الصواب ممّن يرجَع إلى علمه، ويوثَق بفضله وفهمه، وإذا انتهى الحال إلى هذا فلا بد من قانون صحيح يرجع إليه، وميزان مستقيم يعوّل عليه..."(١).

تقليد الأصوات دون ضابط: فقد يقلد القارئ مَن يحب سماع صوته وهو لا يجيد تطبيق أحكام التجويد، فيهتم بمحاكاة الصوت على حساب الأداء، فيتعسف في القراءة ويجعل التنغيم والتطريب واللحن همّه الشاغل.

ولقد تتابع العلماء في كل عصر وفي كل مصر على ذم التعسف والتكلف في تلاوة كتاب الله وعابوه وحذروا منه وأنكروا على من فعله، وهذه بعض أقوالهم متضمنة بعض صور ومظاهر التكلف في قراءة القرآن، فمن ذلك: قول أبي عمرٍو الداني رحمه الله في (التحديد): "فتجويد القرآن هو إعطاء الحروف حقوقَها وترتيبُها مراتبَها، وردُّ الحرفِ من حروف المعجم إلى مخرجه وأصله، وإلحاقهُ بنظيره وشكله، وإشباعُ لفظه، وتمكينُ النطق به على حال صيغته وهيئته من غير إسرافٍ ولا تعسفٍ، ولا إفراطٍ ولا تكلفٍ(٢). اهـ. وقول مكي بن أبي طالب رحمه اللهُ عند الكلام على مخرج

(١) النشر في القراءات العشر (١/٢١٥).

(٢) التحديد في الإتقان والتجويد (ص: ٧٠).

الهمزة: "يجب على القارئ أن يتوسَّطَ اللفظَ بها، ولا يتعسَّف في شِدَّة إخراجها إذا نَطَق بها، لكنْ يخرِجها بلطافةٍ ورِفْق، لأنها حرْفٌ بَعُد مَخْرَجه، فصَعُب اللفظُ بها لصعوبته"(١). وقول ابن الجزري رحمه الله في (النشر): "فَالتَّجْوِيدُ هُوَ حِلْيَةُ التِّلَاوَةِ، وَزِينَةُ الْقِرَاءَةِ، وَهُوَ إِعْطَاءُ الْحُرُوفِ حُقُوقَهَا وَتَرْتِيبُهَا مَرَاتِبَهَا، وَرَدُّ الْحَرْفِ إِلَى مَخْرَجِهِ وَأَصْلِهِ، وَإِلْحَاقُهُ بِنَظِيرِهِ، وَتَصْحِيحُ لَفْظِهِ، وَتَلْطِيفُ النُّطْقِ بِهِ عَلَى حَالِ صِيغَتِهِ وَكَمَالِ هَيْئَتِه، مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا تَعَسُّفٍ وَلَا إِفْرَاطٍ وَلَا تَكَلُّفٍ..."، إلى أن يقول رحمه الله: "فليس التجويد بتمضيغ اللّسان، ولا بتقعير الفم، ولا بتعويج الفكّ، ولا بترعيد الصوت، ولا بتمطيط الشدّ، ولا بتقطيع المدّ، ولا بتطنين الغنّات، ولا بحصرمة الراءات، قراءةً تنفر منها الطّباع، وتمجّها القلوب والأسماع، بل القراءة السّهلة العذبة الحلوة اللّطيفة التي لا مَضغَ فيها، ولا لوكَ، ولا تَعَسُّفَ ولا تَكَلُّفَ، ولا تَصَنُّعَ ولا تَنَطُّعَ، ولا تَخرجُ عن طباعِ العربِ وكلامِ الفصحاءِ بوجهٍ مِن وجوهِ القراءاتِ والأداءِ...اهـ"(٢). وقوله رحمه الله في مُقَدّمتِهِ:

مُكَمِّلاً مِنْ غَيْرِ مَا تَكَلُّفِ *** بِاللُّطْفِ فِي النُّطْقِ بِلاَ تَعَسُّفِ(٣)

وقَول الصفاقسي رحمه الله عند الحديث على طريقة النطق الصحيح بالهمزة: "قد كان العالمون بصناعةِ التجويد يَنْطِقُونَ بها سَلِسَةً، سهلةً برفْقٍ، بلا تعَسُّف، ولا تكلُّف، ولا نبرةٍ شديدةٍ، ولا

(١) الرعاية (ص: ١٤٥).

(٢) النشر في القراءات العشر (١/٢١٢-٢١٣).

(٣) المقدمة الجزرية (ص: ١١).

يتمكن أحدٌ من ذلك إلا بالرياضةِ، وتلقِّي ذلك من أفواه أهلِ العِلْم بالقراءة"(١). وقول السخاوي رحمه الله: في مَطْلَعِ قَصِيدَتِهِ الْمُسَمَّاةِ: (عُمْدَةُ الْمُفِيدِ وَعُدَّةُ الْمُجِيد في مَعْرِفَةِ التَّجْوِيدِ)(٢):

يَا مَنْ يَـــــرُومُ تِلاَوَةَ الْقُـــرْآنِ *** وَيَرُودُ شَـــــأْوَ أَئِمَّةِ الإِتْقَـانِ

لاَ تَحْسَبِ التَّجْوِيدَ مداً مُفْرِطاً *** أَوْ مَدَّ مَـا لا مَـــــدَّ فِيهِ لِـــوَانِ

أَوْ أَنْ تُشَـــدِّدَ بَعْـــدَ مَدٍّ هَـــمْزَةً *** أَوْ أَنْ تَلُوكَ الْحَرْفَ كَالسَّكْرَانِ

أَوْ أَنْ تَفُـــوهَ بِهَمْزَةٍ مُتَهَـــوِّعاً ***فَيَفِـــرّ سَـــامِعُهَا مِنَ الْغَثَيَانِ

لِلْحَرْفِ مِيزَانٌ فَلاَ تَكُ طَاغِياً ***فِيه وَلاَ تَكُ مُخْسِرَ الْمِـــيزَانِ

وما ذكره العلماء في السابق من صور التكلف نجد له نظير ا في الواقع اليوم بل وزيادة عليه، ومن ذلك ما يلي:

مصاحبة القراءة بعض الأفعال كحركات التمايل والاهتزاز ووضع اليدين بصورة معينة وتحريكها مع تغير ملامح وجه القارئ وانتفاخ أوداجه وغير ذلك من الأمور التي شاعت في عصرنا مما لا أصل له، بل هو من التكلف المذموم، وهو شبيه بحال من ذكره ابن قتيبة ووصفه بقوله: "ورأوه عند قراءته مائل الشّدقين، دارّ الوريدين، راشح الجبينين، توهّموا أن ذلك لفضيلةٍ في القراءة وحذق بها"(٣).

(١) تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين (ص: ٤٧).

(٢) (ص: ١).

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص: ٤٣).

المبالغة في تطبيق تفخيم الحروف والحركات وترقيقها: وكذا المبالغة في تحقيق المخارج والصفات بطريقة فيها تنطع وتشديد زائد تخرج عن حد الاعتدال والتوسط، مع أن تحقيق صفات الحروف والمخارج مطلب إلا أنه لا يكون بهذه الصورة المستهجنة.

التكلف في التنقل بين المقامات الصوتية من مقام لمقام آخر أثناء القراءة والتزيد في رفع الصوت والصياح والبكاء والنشيج بصورة مبالغ فيها بما يكون له آثار غير محمودة؛ فقد سُئل سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله عن ظاهرة ارتفاع الأصوات بالبكاء فأجاب رحمه الله بقوله: " لقد نصحتُ كثيرًا ممن اتصل بي بالحذر من هذا الشيء، وأنه لا ينبغي؛ لأن هذا يُؤذي الناس، ويشق عليهم، ويشوش على المصلين وعلى القارئ، فالذي ينبغي للمؤمن أن يحرص على ألا يُسمع صوته بالبكاء، وليحذر من الرياء، فإن الشيطان قد يجره إلى الرياء، فينبغي له ألا يؤذي أحدًا بصوته، ولا يُشوش عليهم، ومعلوم أن بعض الناس ليس ذلك باختياره، بل يغلب عليه من غير قصدٍ، وهذا معفو عنه إذا كان بغير اختياره، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه إذا قرأ يكون لصدره أزيزٌ كأزيز المِرْجَل من البكاء. وجاء في قصة أبي بكر رضي الله عنه أنه كان إذا قرأ لا يسمع الناس من البكاء، وجاء عن عمر رضي الله عنه أنه كان يسمع نشيجه من وراء الصفوف، ولكن هذا ليس معناه أنه يتعمد رفع صوته بالبكاء، وإنما شيء يغلب عليه من خشية الله، فإذا غلبه البكاء من غير قصدٍ فلا حرج عليه في ذلك(١).

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن باز (٣٤٢/١١).

التكلف في الوقوف: فقد يتكلف بعضهم أثناء قراءته، فيتعمد الوقوف على غير المألوف من مواضع الوقف، ويقع فيما حذر العلماء من الوقوف عليه من أنواع الوقف وهو ما يسمى وقف التعسف. قال الأشموني بعدما ذكر أمثلة على ذلك: "فإن ذلك وما أشبهه تعنت وتعسف لا فائدة فيه، فينبغي تجنبه وتحريه؛ لأنه محض تقليد، وعلم العقل لا يعمل به إلَّا إذا وافقه نقل(١).

ومعلوم أن المرجع والتحاكم في بيان صحة هذا الصور السابقة من عدمها هو ما كان عليه الصدر الأول من المسلمين والقرون المفضلة الثلاثة الأولى، قال ابن قتيبة رحمه الله: "وليس هكذا كانت قراءة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، ولا خيار السلف ولا التابعين، ولا القرّاء العالمين، بل كانت قراءتهم سهلة رسلة"(٢).

وعلاوة على أن هذه المخالفات الشرعية من التكلف في القراءة والتصنع الذي لا نفع فيه؛ فإن له أثراً سيئا على المرء ويترتب عليه مخاطر جسيمة بيّنها العلماء، قال ابن الجوزي رحمه الله في

(١) منار الهدى (٣٨/١)، وقد ضرب ابن الجزري في (النشر) أمثلة عديدة على وقف التعسف، منها:
١- الوقف على قوله: ﴿أم لم تنذر...﴾، والابتداء: ﴿هم لا يؤمنون﴾[يس: ١٠]، على أن ﴿هم لا يؤمنون﴾ جملة من مبتدأ وخبر.
٢- الوقف على قوله: ﴿وَارْحَمْنا أَنْتَ...﴾، والابتداء: ﴿مَوْلانا فَانْصُرْنا﴾[البقرة: ٢٨٦]، على معنى النداء، أي يا مولانا فانصرنا.
٣- الوقف على قوله: ﴿ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ...﴾، والابتداء: ﴿بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا...﴾[النساء: ٦٢]، أيْ نقسم بالله إن أردنا.
٤- وكذلك الوقف على قوله: ﴿وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ﴾، والابتداء: ﴿بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ...﴾[لقمان: ١٣]، على معنى القسم كالمثال السابق. وهذا مع ما فيه من التحريف يبطله إجماع المصاحف على أنه كلمة واحدة. ينظر: النشر في القراءات العشر (٢٣١/١).
(٢) تأويل مشكل القرآن (ص: ٤٣).

معرض ذكر تلبيس الشيطان على القراء: "فمن ذلك أن أحدهم يشتغل بالقراءات الشاذة وتحصيلها فيفني أكثر عمره في جمعها وتصنيفها والإقراء بها، ويشغله ذلك عن معرفة الفرائض والواجبات، فربما رأيت إمام مسجد يتصدى للإقراء ولا يعرف ما يفسد الصلاة، وربما حمله حب التصدر حتى لا يرى بعين الجهل على أن يجلس بين يدي العلماء ويأخذ عنهم العلم، ولو تفكروا لعلموا أن المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظه ثم فهمه ثم العمل به ثم الإقبال على ما يصلح النفس ويطهر أخلاقها ثم التشاغل بالمهم من علوم الشرع، ومن الغبن الفاحش تضييع الزمان فيما غيره الأهم".(١) وقال أبو شامة المقدسي رحمه الله: "لم يبق لمعظم من يطلب القرآن العزيز هِمَّة إلَّا في قوة حفظه، وسرعة سرده، وتحرير النطق بألفاظه، والبحث عن مخارج حروفه، والرغبة في حسن الصوت به، وكل ذلك وإن كان حسنًا ولكن فوقه ما هو أهم وأتم وأولى وأحرى، وهو فهم معانيه، والتفكر فيه، والعمل بمقتضاه، والوقوف عند حدوده، وثمرة خشية الله تعالى من حسن تلاوته"(٢). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولا يجعل همته فيما حُجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن إما بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك، فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه، وكذلك شغل النطق بـ: أأنذرتهم، وضم الميم من عليهم، ووصلها بالواو، وكسر الهاء أو ضمها، ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم وتحسين

(١) تلبيس إبليس (ص: ١٠١).

(٢) المرشد الوجيز (ص: ٤٢١).

الصوت"(١). وقال الذهبي رحمه الله يصف حال المشتغلين بالقراءة وتجويد القرآن، في زمانه، الذين خرجوا عن حد الاعتدال والتوسط، وأدى بهم ذلك إلى الاغترار ورؤية النفس، والإزراء على الآخرين: "فالقراء المجودة: فيهم تنطع، وتحرير زائد، يؤدي إلى أن المجود القارئ: يبقى مصروف الهمة إلى مراعاة الحروف، والتنطع في تجويدها، بحيث يشغله ذلك عن تدبر معاني كتاب الله تعالى، ويصرفه عن الخشوع في التلاوة لله، ويخليه قوي النفس، مزدريا بحفاظ كتاب الله تعالى، فينظر إليهم بعين المقت، وأن المسلمين يلحنون، وأن القراء لا يحفظون إلا شواذ القراءة... وضدهم: قراء النغم والتمطيط...."(٢).

وأخيرا فمما تجدر الإشارة إليه أن مما لا يدخل فيما سبق من التكلف في القراءة: تقويم المرء لسانه حتى ينهض بنفسه ليقرأ قراءة صحيحة من غير تكلف، فقد يأتي التكلف في بداية التعلّم، ويزول عند تحسُّنِ القراءة، وكما يقال كان كلفة فصار ألفة، فهذا التكلف في مقام التعلم والدراسة وليس في مقام القراءة، وهو ليس مقصودا بذاته، بل هو لتحقيق مصلحة ومقصد حسن، بأن يتكلف خلاف العادة الخاطئة ليأتي بقراءة صحيحة منضبطة ويغير الخطأ الملازم له.

أما المذموم: فهو التشدُّق بالقراءة التي تتقزز منها الآذان، فهذا تكلف خلاف طبيعته وهو شيء سمج غير مقبول، وكذا كل ما يتكلف يكون خارجا عن الطبيعة، كما قيل:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٥٠).

(٢) زغل العلم (ص: ٢٥).

ومُكلّفُ الأيام ضد طباعها ***** مُتطلبٌ في الماء جذوة نار(١).

الخاتمة

وبعد إعداد هذا البحث، وبناء على ما سبق من المسائل، فقد توصلت إلى النتائج التالية:-

نصوص الكتاب والسنة تنهى عن التكلف وعدم تجاوز الحد في الأمور، وهذا ينتظم القراءة في قراءة القرآن الكريم.

تتابع العلماء في كل عصر وفي كل مصر على ذم التعسف والتكلف في تلاوة كتاب الله والحث على الاعتدال والتوسط في ذلك.

قد يقع المرء في التقليد لسبب من أسباب التكلف كالجهل والرِّياء وحبُّ الظهور، والوسوسة والتقليد والتلقي الخاطئ.

المنهج الأسمى في مسألة ذم التكلف والقراءة بيسر وسهولة ينطلق من قوله ﷺ: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ القُرْءان غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءةِ ابن أُمِّ عَبْد".

لا يعني ذم التكلف في قراءة القرآن بالتعسف في إخراج الحروف والكلمات عدم المطالبة بتحقيق المخارج والصفات تعلما ودراسة، فمقام التعلم غير مقام القراءة.

والله تعالى أعلم.

(١) البيت من قصيدة للشاعر أبي الحسن التهامي. ينظر: دمية القصر وعصرة أهل العصر (١/١٤٠).